

القوم به اختاروا الضمة حملا للشء على نظيره فوجه السبه بين الضمتين كون كلّ في آخر الفعل أعم من أن يكون آخر حقيقة أو تنزيلا، وأورد على الشارح أن ضمة الواو لمناسبتها كما قالوا في "التبلون" فهي ضمة بناء وضمة "قل" لإتباع ثالث ما بعده، فهي ضمة اتباع، لاضمة بناء. وأصل تحريكها للتخلص من التقاء الساكنين، وكلا منا في أسباب ضم البناء. فكان الأوّل إسقاط هذا الأخير) اه فما عسى أن يقول المنصف في مثل هذا وأن يكون حكمه عليه؟ وهل كان العربى الأصل ومن معه من الناطقين الأوائل بهذه الكلمات يفكرون ويقدرّون ويرتبون هذه القضايا الجدلية قبل أن ينطقوا بالكلمة ويعدّون الأقيسة التي تنتج نتائج مُعَيَّنة في البناء والإعراب وحركة البناء والإعراب؟ ولماذا كانت الحرة ولم يكن السكون؟ ولم كانت الحركة الفتحة أو الكسرة أو الضمة. . . أو. . . ز. ليس معنى هذا أن ذلك العربى الأول كان فيلسوفاً، ناضجاً، ومنطقياً عالماً؟ فمن أين جاء له ولأمته في عهد نشأتها وبدء تكوينها ذلك المنطق، وذلك التعليم الفلسفى وغير الفلسفى وهما لا يظهران إلا بعد تمام النضج العلمى، والوعى الحضري؛ والرقى الذى تسبقه دراسات وبحوث منظمة في نواحي العلوم المختلفة؟ ولن يكون من هذا شيء في بداية الأمم وجاهليتها وأطوار نشأتها الأولى. ولو أن العربى الأول ومن معه في عهود نشأتهم العيتقة فكّر في كل كلمة على هذا النحو وأطال النظر في بنائها وإعرابها وما يتصل بذلك على الوجه العجيب الغريب الذى سجله النحاة لَوَدَّع الحياة، وخرج هو و. هل جيلة من دنياهم قبل أن يفرغوا من بحث بضع كلمات قليلة على الوجه السالف؛ ذلك أن أعمارهم قصيرة لا تتسع لمثل هذا البحث المستقصى العنيف، والدراسة العقلية المستفيضة. بل إن أعمار أجيال متتابعة لا تتسع لمثل هذا ولا للفراغ منه. وإذا فكيف كانوا يتكلمون قبل الانتهاء والفراغ من تلك الدراسة العجيبة؟